ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبـارك

(بقية المقال الحادى والعشرين)

وفى وادى السلام يقول الأستاذ على الشرقى :

ثلاثون جيلاً قد ثوتْ فى قرارةٍ
تزاحم فى عُرب وفُرس وأكراد
ففى الخمسة الأشبار دُكّتْ مدائنٌ
وقد طُويتْ فى حُفرة ألف بغداد
عبرت على الوادى وسَفّتْ عجاجةٌ
فكم من بلاد فى الغبار وكم ناد !
وأبقيت لم أنفض عن الرأس تربهُ
لأرفع تكريماً على الرأس أجدادى

وكذلك كان الدخول إلى النجف من باب السلام ، أى الموت !

وبحثت عن فندق فكان فندق السلام فتشاءمت ، ثم أسلمت نفسى إليه ، لعلمى بأنى صائرٌ لا محالة إلى السلام ، أى إلى الموت !

ثم رأيت فندق السلام بالنجف شبيهاً بأخيه فندق السلام فى حىّ سيدنا الحسين بالقاهرة . رأيت الناس ينامون زرافات فى حجرة واحدة ، فأخذت أمتعتى وانصرفت ، وذهبت إلى فندق ثان فرأيته أعجب من الأول ، فمضيت إلى ثالث فرأيته أغرب من أخويه ، وانتهى بى المطاف إلى غرفة حقيرة فى فندق حقير هو أعظم الفنادق بالنجف

ولعل الفنادق كانت كذلك لقربها من وادى السلام ، فهى تروض المرء على قبول الدفن مع من يعرف ومن لا يعرف ، وتقرّب إلى ذهنه صورة المساواة فى دنيا الأموات

* * *

كان غبار السفر الذى دام أكثر من أربع ساعات آذانى ، وكنت أحب أن أصلح من شأنى فى الفندق لأستعد لمقابلة البهاليل من آل ليلى ، فلم أجد فى الفندق ما يسعف ، ولكن لا بأس فسيلم النجفيون بعد ساعات أنى نزلت فى فندق فيغضبون ويقولون (هذه فضيحة) وينقلون أمتعتى إلى منزل أحد الأصدقاء

وعندئذ أتذكر أن النزول فى الفندق كان عند أهل العراق علامة من علائم المسكنة ، يشهد بذلك قول الشاعر القديم

يا أيها السائل عن منزلى نزلت فى الخان على نفسى
آكل من خبزى ومن كسرتى حتى لقد أوجعنى ضرسى

ويشهد بذلك قول شاعر حديث هو الرصافى :

سكنت الخان فى بلدى كأنى أخو سفر تقاذفهُ الدروبُ

وأصرخ فى وجه النجفيين قائلاً : إن المدينة التى تخلو من فندق نظيف لا تسمى مدينة ، والذين عاشوا فى أوربا كما عشتُ لا يستطيعون النزول فى منازل الأصدقاء ، والفندق النظيف هو المأوى الطيب للضيف ، والحكومة المصرية لا تنزل ضيوفها فى غير الفنادق ، لأنها تعرف قيمة الفنادق ، وكذلك تصنع حكومة العراق حين تستقبل ضيوفها فى بغداد

فيا أهل النجف ، تذكروا أن مدينتكم فى حاجة إلى فندق نظيف ، وتذكروا أن مثل ذلك الفندق ينقل مدينتكم من حال إلى أحوال

* * *

خرجت من الفندق أتلفت ذات اليمين وذات الشمال لأرى شبيهات ليلى ، شفا الله ليلى وشفانى ، ومنحنى وإياها العزاء يوم الفراق ، إن كان لنا سبيلٌ إلى التلاق قبل الفراق

وساقتنى قدماى ، بل هداني قلبي إلى الحرم الحيدرى

وقفت بصحن الحرم كالأرقم ، والحمد لله على نعمة العافية ، وليته يتفضل بحفظ هذه العافية ولو عشر سنين لأداوى جميع المرضى من الملاح

وقلت فى نفسي : أنا تلميذ الشريف الرضى الذي يقول :

لو أنها بفناء البيت سانحةٌ لصِدتُها وابتدعت الصيد فى الحرم

فإذا كان الشريف استباح الصيد فى الحرم النبوى فأنا أستبيحه فى الحرم الحيدرى

ودرت حول الضريح مرتين ، ثم وقع البصر على فتاة ساجية الطّرف مشرقة الجبين تخفق القلب

ثم وقفت

أساول عينيها بعينى والهوى يشيع الحيا فى فؤادى وأعضائى

وظنت الفتاة أنها أقدر منى على الفتون ، فحاولت قتلى ، ثم لطف الهوي فصرعتها ، فجمعت ما تبدد من قواها ، وفرت فرار الغزال المطعون

وعَدَوتُ لاقتناصها فلم أفلح . وكيف يعدو النشوان وهو كالقيد فى الشوك !

من أى سحر صيغت تلك العيون ؟

وإلى أية غاية تسير تلك العيون ؟

ولأية حكمة خلقت المقادير تلك العيون ؟

لقد أفلح الدساس الظريف الذى نقلنى إلى النجف ، وهو على ظرفه لئيم خبيث

وبالنجف الحارى"[1] إن زرت أهله

مهاً مهملات ما عليهن سائس

خرجن بحب اللهو فى غير ريبة عفائف باغى اللهو منهن آيس

ثم طفت بالحرم مرة ثانية فوجدت ناساً يقرأون أدعيات وصلوات وحولهم نساء يبكين ورجال يبكون، فوقفت أسمع وأبكي، وهل فى الدنيا بلاء مثل بلائى ؟ أنا العاشق المهجور الذى غدرت به ليلاه . ولو كانت ليلى واحدة لصبرت ، ولكنهن ليليات !

فيا بديع الملاحات ويا فاطر السموات ، كيف ترى حالى !

ويا خالق النخيل والأعناب، كيف سكبت الصهباء فى روحى؟

ويا مجرى الدمع فى الشؤون، كيف علمتنى وعلمت الحمائم النُّواح

وما الذى أعددت لتكريمى يوم ألقاك وقد سبّحت بحمدك فوق أفنان الجمال !

وما عندك لسلامق من الناس ، وقد خاصمت فيك جميع الناس !

* * *

وطفت بصحن الحرم مرة ثالثة فوجدت ضريح الحبوبى الذى يقول :

اسقنى كأساً وخذ كأساً إليك فلذيذ العيش أن نشتركا

وإذا جُدت بها من شفتيك فاسقنيها وخذ الأولى لكا

أو فحسبى خمرةٌ من ناظريك أذهبت نسكى وأضحت منسكا

وانهب الوقت ودَعْ ما سلفا واغتنم صفوك قبل الرّنق

إن صفا العيش فما كان صفا أو تلاقينا فقد لا نلتقى

وعند ذلك الضريح طال بكائى ، فهذا شاعر قضى حياته فى التغنى بالجمال ، ثم رآه النجفيون صوفياً فدفنوه بجوار أمير المؤمنين ، وأنا أفنيت شبابى فى التغنى بالجمال ولم أجد غير العقوق !

فمتى يعرف قومى أنى صوفىٌّ يؤمن بوحدة الوجود؟

ومتى يعرف قومى أنى أصدق تلاميذ ابن الفارض فى هذا الزمان ؟

اللهم لطفك ورحمتك ، فقد طال بلائى بالناس !

* * *

بئستُ من الصيد فى الحرم الحيدرى بعد فرار تلك الغزالة ، وبدأتُ أعتب على سيدنا على بن أبى طالب ، فمثلى لا يُكرَم فى رحابه بالماش والجلاش ، وإنما يكرم مثلى بالهيام فى أودية الفتون ، وما كنت فى حياتى من الفاسقين ، وإنما كنت مؤمناً يتقرب إلى ربه بعبادة الجمال

وفى حومة هذا العتب تذكرت أن لى فى النجف صديقاً من تلاميذ الأستاذ محمد هاشم عطية هو السيد محمد تقى آل الشيخ راضى ، فقلت أذهب إليه عساه يجد السبيل إلى الظبية التى نفرت منى ، ولكنى ما كدت أصل إلى منزله بعد طول البحث حتى وجدته فى ارتياع ، فقد علم أن الشرطة فى النجف تبحث عنى ، لأنى فى ظنهم وردت النجف لمطاردة الظباء ، وقد رأى بفطرته السليمة أن ينفى الشبهة فدعا علماء النجف للتسليم على العالم العلامة الدكتور زكى مبارك !

وما هى إلا لحظة حتى كانت الدار تموج بالغرّ البهاليل من أقطاب النجف

وجلست بين القوم جلسة العالم الحق ، وما يصعب علىّ أن أمثل هذا الدور الفظيع ، فانتقدت صاحب مجلة الحضارة لأنه يدعو إلى تعديل المذاهب القديمة فى التعليم ، وقلت إن مذاهب التعليم فى النجف كمذاهب التعليم فى الأزهر لا ينبغى أن تزول

وعجب القوم من أن يصدر هذا القول عن رجل متخرج فى السوربون

ولكنى فى الواقع لم أكن مرائياً ، فقد صح عندى أن الأساليب الأزهرية والنجفية أساليب تنفع أجزل النفع فى رياضة

(١) الحارى نسبة إلى الحيرة على غير قياس . وفى معجم ياقوت (الجارى) وهو تحريف

العقل ، يضاف إلى ذلك أن الأزهر هو الذى حفظ اللغة العربية فى عهد المماليك ، وأن النجف هو الذى حفظ اللغة العربيـة فى عهد الأتراك ، ورعاية العهد توجب الابقاء على تلك الأساليب التى استطاعت أن ترسل النور الوهاج فى دياجير الظلمات

وبعد طول الحوار فهمت أن فى النجف ثورة فكرية تشبه الثورة التى وقعت فى الأزهر منذ أكثر من ربع قرن ، وعرفت أن طلبة العلم فى النجف يريدون أن يثيروا حالهم ليساروا مناهج التعليم فى العصر الحديث

وقد تأكد ذلك المعنى حين قال الأستاذ الصورى : ما رأيك يا دكتور فى أن أخلع عمامتى ؟ فقلت : أنا أبغض المعممين الذين يخلعون عماماتهم ! فقال : هل تعرف ما قلتُ فى العمامة ؟ لقد قلت : إنها منعت رزق ورفسق

فابتسمت وقلت : وكيف تعيش يامسكين بلا رزق ، وبلا فسق ؟ !

وتقدم الأستاذ البلاغى صاحب مجلة الاعتدال فقص أحاديث يشيب لها الوليد ، ومنها عرفت أن طلبة العلم فى النجف يعيشون فى بؤس . وقد طفر الدمع من عينى حين سمعت أن عالما نجفيا أشرت إليه فى كتاب (عبقرية الشريف الرضى) جلس فى صحن الحرم الحيدرى يبيع كتبه ليسدّ ما عليه من ديون ، ديون لم يجنها لهوٌ ولا لُعبون ، وإنما جناها الخبز والماء

وكان هذا العالم المحقق لقينى فى الكاظمية منذ أشهر ، لقينى لقاء المساكين ؛ ولما لقينى فى النجف تبسم وقال : كنت فى الكاظمية غريباً ، وأنا اليوم فى بلدى ، وأنا حاضر لخدمتك

وكنتُ أحب أن أقبل دعوته الكريمة ، ولكنى وا أسفاه كنت عرفت ترجمة حاله منذ لحظات ففررت من كرمه بترفق وتلطف

لا تحزن أيها الزميل ؛ فسيكون لى ولك مكانٌ بين الصابرين

لا تحزن ، فالدنيا أحقر من أن يبكى على نعيمها أحرار الرجال

لقد سمعت أنك بعت دارك بثمن بخس لتسد ديونك . فهل علمت أن لك عُقبى الدار يوم يجزى الله الصابرين ؟

* * *

ثم مضيت فطوّفت بالنجف وحولى جيش من أهل العلم والأدب والبيان ، وفى أحد المنعطفات وقع البصر على طفلة من قريبات ليلى ، فمددت يدى أمسح خدها الأسيل فصرخت ، وتضاحك الرفاق ، ولكنى سأرجع بإذن الله إلى النجف لأعرف أهل تلك الطفلة وأخطبها لأحد أبنائى ، وبيت أهلها يقع فى دربونة متصلة بدربونتين إحداهما توصّل إلى الرابطة الأدبية ، والثانية توصّل إلى الحرم الحيدرى ، ولذلك البيت روشن عليه بَرّادة ، وبداخله بئرٌ ومرداب ، وفوق الروشن حمامتان تسجعان ، وفوق عتبات ذلك البيت تتحدر مدامع العشاق

ياشبيهة ليلى فى حسنها ودلالها ولؤمها وغدرها ! ترفق بقلبى فقد تركته فى الدّربونة لتدوسه فى كل صباح أقدامك الرقاق

ياشبيهة « كريمة » الغالية التى تداعب أباها فى الأحلام تذكّرى أن طيفاً زارك فى النجف ولن يعود . ياأخت «زينب» ، تذكرى أن الرجل الذى مدّ يمينه ليمسح خدك الأسيل لم يكن فاجراً ، وإنما هو مجاهد ترك وطنه وأهله فى سبيل العقيدة والوجدان

اليك دمى ياحلوة ياجميلة ، وهو دمعٌ تمرّد على الخطوب ، ثم أذلّته عيون الملاح . أحبك أيتها الطفلة الوسيمة وأشتهى أن أسمع صراخك مرة ثانية ، فما كان وحق الحب إلا صراخ الدلال

واستيقظت فى اليوم التالى مبكراً لأرى الكوفة ، ولأقف بأطلالها كما وقف أستاذى ماسينيون ، وكان أكبر همى أن أرى مسجد الكوفة الذى طُعن فيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، والذى فار فى زاويته التنّور لعهد نوح عليه السلام ، والذى صلى فيه ألف نبيّ وألف وصيّ ، والذى فيه عصا موسى ، والذى هلك فيه يغوث ويعوق ، والذى يحشر منه يوم القيامة سبعون ألفاً ليس عليهم حساب ، وفى وسطه روضة من رياض الجنة كذلك تقول الأساطير

وما كانت فى عينى وقلبى أساطير ، وإن كنتُ تلميذ منصور فهمى وطه حسين

لقد شهدت بعينى كيف طُعنَ على بن أبى طالب ورأيت دمه رأى العيان

ورأيت المكان الذى خطب فيه الحجاج خطبته المشهورة ، الحجاج الهائل الذى أصلح العراق ، وأفسد العراق

ورأيت قبر مسلم بن عقيل رسول الحسين ، ورأيت كيف يبكى الناس على قبره وكأنما قُتل بالأمس ، فتذكرت أن العراق

يحوى ثروة عظيمة جدًا من الحماسة الوجدانية ، وتذكرت أن العراق تغلب عليه سرعة الانفعال ، فهو يقتل المصلح بلا ترفق ، ثم يحمل البكاء عليه شريعة من الشرائع

تذكرت أن العراق كالقوة الكهربائية التى تحيى وتميت ، وهو ينتظر رجلا فى طغيان الفرات وسماحة النيل

إن العراق من قوى العروبة والاسلام، ولكن أين من يعرف؟

لقد هدانى العراق وأضلنى، وكان على الدهر مصدر هداية وضلال

* * *

ثم مضيت ألتمس آثار الحيرة البيضاء ، مضيت ألتمس آثار الخورنق ، فلم أعرف ولم يعرف رفاقى أين الخورنق

وكان هيامى بأطلال الحيرة موسماً من مواسم الشعر والخيال، وفى ذلك الهيام عرفت شيئاً من مدنية العرب فى الجاهلية

ولو كان لى شيء من الأمر فى حكومة العراق لأجريت نهر السدير من جديد لأنقش فى وجه الزمن ذكريات النعمان

مضينا إلى أطلال الخورنق مع سائق جهول فقادنا إلى مكان موحش، فقال الرفاق : ليس هذا مكان الخورنق . فقال السائق : أنتم تبحثون عن أحجار ، وههنا أحجار !

صدقت أيها الجهول ، فنحن نبحث عن أحجار ، ولكننا نبحث عن أحجار نواطق !

عندئذ تذكرت فراعين مصر ، فقد كانوا يدركون أن الزمن لئيم غدار ، وأن التاريخ كلام فى كلام ، فبنوا أهرامهم وقصورهم بأساليب يعجز عن فهمها الزمان

وقد تقوضت آثار الملوك فى المشرقين والمغربين وعجز الدهر الغادر عن هدم آثار الفراعين

ما أشقاك فى دنياك وأخراك أيها النعمان ! أنت قتلت سِنِمَّار ليبقى سر الخورنق ، فهل بقى الخورنق ؟

ليتك استعنت الجندى المجهول فى وادى النيل ، ليتك بنيت هرماً يعجز اللئام عن نقل أحجاره ليبنوا بيوتهم الخاوية

أيها النعمان ، سلام عليك من شاعر مصرى يبكى لمصيرك فى التاريخ !

أيها النعمان ، أيها الملك العربى العظيم ، أين الخورنق وأين السدير ... ؟

إعترف أيها الملك بعظمة الشعر والشعراء ، فنحن الذين حفظنا مكانك فى التاريخ ، ولولا الشعراء لطمس الزمن مكانك فى التاريخ

وفدت على أطلال قصرك وأنا جائع ظمآن فما تزودت غير الأسى والأنين

وفدت على أطلال أنكرتها العين ، وعرفها القلب

وفدت على أطلال لم يعرفها جيرانك من أهل النجف ، وعرفها شاعر مصرى مظلوم ينكره أهله ، كما أنكرك أهلك

فيا زميلى فى البؤس والشقاء ، سلام عليك

ثم مضينا نمتع النظر بطغيان الفرات ، وأين طغيان الفرات من طغيان قلبى !

هذه الكوفة الاسلامية ، وتلك الحيرة الجاهلية ، وأولئك الغافلون من العرب والمسلمين . فيا رب الأرباب أنقذ عبدك المسكين من ظلم الجحود والعقوق

* * *

ورجعت إلى النجف أسأل عن أخوات ليلى ، ولكن كيف ؟ إن النجف كله يطارد العاشق المسكين الذى ضيع مستقبله فى سبيل هواه

ويصمم النجفيون على إقامة حفلة تكريم للدكتور زكى مبارك فأرفض، لأن تلك الحفلة كانت توجب أن أتخلف عن دروسى فى دار المعلمين العالية ، وتخلفى عن دروسى أمر مستحيل . وكذلك أقهر علماء النجف وأمتطى السيارة إلى بغداد

رجعت فى زى المساكين لأنى لم أجد الشفيع إلى ليلاى

رجعت ذليلاً مقهوراً ، فماذا أصنع ؟

آه من حبى وغرامى وبلواى !

لقد هجرتنى ليلى وصدفت عنى ظمياء

فلأذهب إلى الموصل لأستشفع بقريبات ليلى هناك

إلى الموصل الذى رقدت فى ثراه عظام أبى تمام أمتطى قطار المساء ...

(للحديث شجون) زكى مبارك

إشـــتراك الصيف

تقبل ادارة الرسالة والرواية الاشتراك الشهرى فى المجلتين أو فى احداهما تسهيلا على حضرات القراء فى راحة الصيف ومقدار الاشتراك فى الرسالة أربعة قروش وفى الرواية قرشان ترفع سلفاً